الباب السادس عشر

التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم

الرسول باب الله :

أكثر المعترضون على التوسل ، وقالوا ما قالوا ورموا المتوسلين بالكفر ، والأمر من البساطة بحيث لا يحتمل كل ذلك الجدل العقيم .

فالمتوسل حين يتوسل إلى الله برسوله صلى الله عليه وسلم ،إنما هو لاجئٌ إلى الله تعالى لا إلى غيره ، فإنّ رسوله صلى الله عليه وسلم هو بابه بدليل قوله تعالى : (وإذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) ، فقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه ولم يَرَ اللهُ فى ذلك كفراً ، بل قال سبحانه : (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنوا بِي لَعَلَّهمْ يَرْشدُون) . ومثل ذلك فى كتاب الله كثير : (وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هوَ أَذًى) ، و (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) . ولم يقل الله لماذا يسألونك عنى ؟ ولا يسألون الله مباشرة فيجيبهم مباشرة ، بل أقر سبحانه لجوءهم فى السؤال إلى رسول الله وأجابهم على ما سألوا عنه رسول الله . وأما إنه سبحانه لم يقل لرسوله قل لهم (إنى قريب) على غير ما أجاب به الأسئلة الأخرى فلأن سؤالهم كان عن « الله تعالى » بدليل قوله (عنى) فمن الطبيعى أن تكون الإجابة (فإنى قريب) وهى جواب الشرط (وإذا سألك . . .) بينما تم سؤالهم فى المسائل الأخرى بدليل قوله تعالى ويسألونك ، كما أنك تلاحظ أن قوله « قل » لأن المسئول هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعلّمه الله الجواب بقوله تعالى (قل . . . .) والتوسل برسول الله ليس معناه ترك سؤال الله بل هو لجوء إليه من بابه الذى جعله رحمة للعالمين ، وإليك التفصيل .

تبليغ الدعوة :

إن الله دعانا إلى الإيمان على يد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وخاطبنا بالقرآن الكريم الذى أوحاه الله إليه وعهد إليه بإبلاغه ، ولم يجعل الله رابطته بعباده رابطة مباشرة ، بل جعلها بالواسطة . لا بل إنَّ وحيه وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالواسطة ، قال تعالى فى سورة الشعراء : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) . وجعل الله بيعته بيعة لله (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ) ، لأنه رسول ربه للناس .

الرسالة المحمدية رحمة :

ورسالته صلى الله عليه وسلم قامت على الرحمة ولم تقم على الغضب ؛ فى الحديث القدسى «سبقت رحمتى غضبى» وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : (وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين) فجعله تعالى مناولاً للرحمة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا قاسم والله مُعْطٍ » كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا رحمة مهداة » ومع أن الله تعالى هو الفعّال لما يشاء فإنه أقامها أسبابًا لتؤتى ثمرتها بإذن مسببها سبحانه ، فخلق الأرض للنبات . فإذا قُلْتَ أنبتَتْ الأرضُ الزرعَ فالمعنى أنها أنبتته بإذن خالق الأرض . فهو على المجاز لا على الحقيقة .

معرض التوحيد ومعرض الأسباب :

فهناك معرضان لابد من الفصل بينهما ، معرض التوحيد . ومعرض الأسباب التى أقامها الله لتؤتى ثمرتها بإذنه . أما فى معرض التوحيد فليس مع الله أحد لا كبير ولا صغير . فهو المقدّر وهو المدبرّ وهو الرازق وهو المعطى وهو الشافى . .

إلخ ، فالله فعّال لما يشاء فى قضائه الذى هو من سلطانه المطلق ، لكنه تعالى شاء أن يرزق البعض بالبعض ، ويُعَلّم البعض بالبعض ، بل ويخلق البعضَ بالبعض .

اللجوء للأسباب لا ينافى التوحيد :

واللجوء للسبب ليس معناه الانصراف عن المسبب ، فإنى ألجأ إلى الطبيب باعتباره أداة أقامها الله لعلاج الأمراض مع ثقتى فى أن الشفاء من عند الله (وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) ، فأنا لاجئ إلى الله بالأسباب التى أقامها ومعتمد عليه فى أن تؤتى ثمرتها بإذنه . وقد كلفنا الله أن نسعى للمعاش ونتخذ الأسباب مع أنه هو وحده الرازق ، لكنه جعل للرزق أسبابًا يطرقها المسترزقون بأمره ليعطيهم ما قسم لهم من الرزق ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لاتمطر ذهبًا ولا فضة .

وما هو كائن فى أمور الدنيا على يد البعض للبعض ، يقوم مثله فى أمور البرزخ حين ينتقل العباد من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ ، فمع أنه سبحانه هو الغفور الرحيم ، فقد أمرنا بصلاة الجنازة على موتانا ، فندعو لهم فى صلاة الجنازة بالمغفرة ، فإن لم نُصَلِّ عليهم كنا عنده من الآثمين ، فشاء سبحانه أن يَشْفَعَ الأحياءُ للأموات فى صلاة الجنازة من باب ربط الثمرات بأسبابها — وليس فى هذا تقييد لله ، ولا انصراف عنه ولا إشراك به ، بل فيه تضرّع ودعاء ولجوء له ، وأمل فيه من طريق شرْع الله وهو سبحانه الغيور على توحيد ذاته ، وهو ما يفيد انتفاع الميّت من صلاح الحى لأن صلاة الجنازة عمل صالح .

وعكس هذه الصورة واقع بنص كتاب الله ، فقد شاءَ سبحانه أن يحفظ للغُلامَيْن اليتيمين كنزَهُما حتى يَبْلغا أشدّهما ، فأوحى للخضر عليه السلام أن يقيم الجدار على الكنز ، وبيّن سبحانه أن ذلك منه رعاية لأبيهما الصالح فى ذريته من بعده ، فقال تعالى : (وَأَمَّا الجِدَارُ فكان لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فى الْمَدِينَةِ وَكان تحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكان أَبُوهُمَا صَالِحًا فأَرَاد رَبُّك

أَنْ يَبْلغَا أَشُدَّهُمَا ويَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى : ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) . وهو ما يفيد قطعاً انتفاع الحى من صلاح الميِّت بعد موته .

وقد جمع الله تعالى بين معرض التوحيد ومعرض الأسباب فى قوله تعالى : (وإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ) . فقد أسلم سيدنا زيد ، وأُعتق من الرق ، وتزوّج بالسيدة زينب بنت جحش ، وكان ذلك كله على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسببه ، فجعل الله رسولَهُ مُنعمًا على زيد من باب السببية ، والله سبحانه وتعالى منعم بقضائه وقدره ، وكان تنفيذ قضائه على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نعت الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالإنعام مع أنه لا مُنْعم إلا الله تعالى ليبين أنَّ إنعام السبب هو من إنعامه جل جلاله ، وليس فى ذلك ما ينافى توحيد الله تعالى .

وشاءَ الله أن يدفع الناسَ بعضَهم ببعضٍ فقال تعالى فى سورة البقرة آية ٢٥١ : (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْض لَفَسَدَتِ الْأَرْض وَلَكِنَّ الله ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) ، وبيّن سبحانه الحكمة من دفع الناس بعضهم ببعض ، فقال تعالى فى سورة الحج آية ٤٠ : (وَلَوْلَا دَفْعُ الله النَّاسِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كثيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه إِنَّ الله لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ) ، وهو ما يفيد أن الله يكرم الناس بصالحيهم العاكفين على العبادة فى دور العبادة ، وقد أكرم الله الكفَّار فى مكة بوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم فقال تعالى فى سورة الأنفال الآية ٣٢ ، ٣٣ : (وإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ

هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَاب أَلِيمٍ ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم وهم يَسْتَغفِرون) .

وفى مَعْرِض التوحيد يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (إِنَّكَ لا تَهدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلِكنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ) . وفى مَعْرِض الأسباب يقول له سبحانه : (وإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، أى تهدى مَنْ قضى اللهُ أن يهتدى . فليس بين المعرضين تصادم ، بل هو الحق من ربك ، فهو المسبب ، والأسبابُ أسبابُه ولا يكون لها ثمرة إلا بإذنه : (وَمَا رَمَيْتَ إِذ رَمَيْتَ ولكنَّ اللهَ رَمَى) .

وهذا يفسر لك كيف قال جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام : (إِنمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهبَ لَكِ غُلَاماً زكيا) . وليس فى مقدور جبريل أن يهبها غلاماً بنفسه ، ولكنه استند إلى سلطان الله الذى آتاه وقال فى ثقة بربه (لأَهبَ لك غلاماً) . لأنه تعالى قال له اذهب بأمرى فهب لها غلاماً بإذنى وقُدرتى .

وكذلك قول سيدنا المسيح عليه السلام : (وأُبْرِئُ الأَكْمه والأَبْرَص وأُحْيِى الْمَوْتَى بإِذنِ الله) ، وأيضا قول سيدنا موسى عليه السلام : (ربِّ إنى لا أَملكُ إِلاَّ نَفْسِى وأَخى) وهو لا يملك على الحقيقة نفسه ولا أخاه ، وإنما الله ملَّكه نفسه وأخاه — فقد قال تعالى : (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّا) .

وسخَّر اللهُ الملائكةَ فى الاستغفار للمؤمنين وكشف الله لنا عن فضله فى ذلك فقال تعالى فى سورة غافر الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ : (الَّذِينَ يَحْمِلونَ العَرْش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمنُوا رَبَّنَا

وسِعْتَ كلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وقِهِمْ عذَابَ الجحيم ، رَبَّنَا وأَدْخِلْهُم جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ من آبائِهِم وأَزْواجِهِم وذُرِّياتِهِم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذ فَقَدْ رحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

إذا فَصَلْنا بين المعرضين معرض التوحيد ومعرض الأسباب ، وربطنا بينهما برابطة القضاء وتنفيذه بأسباب ، أجزنا فى غير حرج التوسّلَ برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربّه ، وكذلك التوسل بالصالحين من عباد الله المتقين الذين قال تعالى فيهم : (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) .

أقوال العلماء :

وإليك ما يقوله الإمام السمهودى رضى الله عنه فى كتابه خلاصة الوفا :

التوسل والتشفع به صلى الله عليه وسلم وجاهه وبركته من سنن المرسلين وسير السلف الصالحين .

آدم يتوسل :

وقد صحح الحاكمُ حديثَ : لما اقترف آدمُ الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد صلى الله عليه وسلم لَمَا غفرت لى[1] ، فقال : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقْه ؟ قال : يارب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىَّ من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ، فعرفت أنك لم تُضِفْ إلى اسمك إلاّ أحبَّ الخلق ؛ إليك فقال الله صدقت يا آدم إنه لأحبُّ الخلق إلىّ ، وإذ سألتنى بحقّه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ماخلقتك .

وقال سيدى العلامة الزرقانى : ولله در القائل حيث ضمن مضمون الحديث حاكياً عن سيدنا آدم عليه السلام فقال :

وكان لدى الفردوس فى زمن الصبا ... وأثوابُ شمل الأنس مُحْكَمةُ السَّدى

يشاهِدُ فى عدن ضياءً مُشَعْشَعًا ... يزيد على الأنوار فى الضوء والهُدَى

فقال إلهى ما الضياءُ الذى أرى ... جنودَ السما تَعْشُو إليه تَرَدُّدَا

---

(١) طلب المغفرة متوسلا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فقال نَبِيٌّ خيرُ من وطئَ الثَّرى ... وأفضلُ مَنْ فى الخَيرِ راحَ أو اغْتدى
تَخَيَّرتُه من قبل خلقك سيِّداً ... وألبستُه قَبل النبيين سُؤددا
وأعددتُه يوم القيامة شافعاً ... مُطاعاً إذا ما الغير حادَ وحَيَّدا
فيشفَعُ فى إنقاذ كلِّ مُوَحِّد ... ويُدخله جنات عدن مُخلَّدا
وإنْ له أسماء سمَّيتُه بها ... ولكننى أحْبَبْتُ منها محمدا
فقال إلهى امْنُنْ علىَّ بتوبة ... تكون على غَسْل الخطيئة مَسْعَدَا
بحرمة هذا الاسم والزَّلْفَة التى ... خَصصتَ بها دون الخليقة أحمدا
أقِلْنى عِثَارِى يا إلهى فإنَّ لى ... عدوًّا لَعِينًا جارَ فى القَصْد واعْتدى
فتاب عليه ربُّه وحماه من ... جِنَايَةِ ما أخْطَاه لا متعمِّدا

ضرير يبصر :

وللنسائى والترمذى عن عثمان بن حنيف أنَّ رجلا ضرير البصر أتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم فقال : ادْعُ الله لى أن يعافينى ، قال : إن شئت دعوتُ وإن شئتَ صبرتَ فهو خيرٌ لك ، قال : فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء :

« اللهمَّ إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيِّك محمد نبىِّ الرحمة يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى لتُقْضى ، اللهم شفِّعه فىَّ » ، وصححه البيهقى وزاد « فقام فأبصر » .

وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانوا إذا قحطُوا استَسْقَوا بالعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فقال : اللهمَّ إنَّا كنا نتوسل إليك بنبيِّنا صلى الله عليه وسلم فتَسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم فاسقنا قال فيُسقون . وفى رواية للحافظ أبى القاسم هبة الله عن ابن عباس أن عمر رضى الله عنه قال : اللهم إنا نستسقيك بعمِّ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ونستشفع إليك بشيْبَته فَسُقُوا ، وفى ذلك يقول عباس بن عتبة :

بعَمِّى سقَى الله الحجازَ وأهلَه ... عشية يَسْتَسقى بشَيْبَةِ عُمر

وفى رواية للزبير بن بكار أن العباس رضى الله عنه قال فى دعائه : وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيِّك صلى الله عليه وسلم فاسْقِنا الغيث ، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض . وفى رواية له عن ابن عمر أن ذلك عام الرمادة .

حكمة الاستسقاء بالعباس :

ويقول المعترضون : لماذا توسلوا بالعباس رضى الله عنه ولم يتوسلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم إن كان التوسل به صحيحًا وجائزاً . فنقول لهم لأن الاستسقاء له صلاة تؤدى ، وهى ركعتان ، وهى سنة مؤكدة — ويندب بعدهما خطبتان ويعقبهما دعاء ، ولا يعقل أن يكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوم من قبره الشريف لتأدية ذلك .

ولو تدبر المعترضون قليلا لفطنوا أن السادة الصحابة اختاروا فى استسقائهم العباس رضى الله عنه لأنه عم الرسول صلى الله عليه وسلم وأقرب الناس إليه ، فهو توسل بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد سقاهم الله وسمى العباس رضى الله عنه « ساقى الحرَمين » وقد قال العباس صراحة فى دعائه كما مر عليك : « وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيك صلى الله عليه وسلم فاسقنا الغيث » وقد استجاب الله له .

وقد حكى أهل العلم عن الإمام العتبى (أحد شيوخ الإمام الشافعى رضى الله عنهما) — مستحسنين له — قال :

كنتُ جالسًا عند قبرِ النبى صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : ﴿ولو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيماً﴾ ، وقد جئتك مستغفرًا من ذنبى مستشفعًا بِكَ إلى رَبِّى ، ثم أنشأ يقول :

يا خيرَ من دُفنت فى القاع أعظُمُهُ ... فطابَ من طيبهن القاع والأكم

نَفْسى الفداء لقبر أنت ساكنــه ... فيه العفافُ وفيه الجود والكرم

قال العتبى : ثم انصرف ، فغلبتنى عيْنَاىَ فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال : ياعتْبِىّ إلحَقْ الأعرابىّ فبشّره أن الله غفر له .

ويحكى الأصمعى رحمه الله أن أعرابيًّا وقف مقابل القبر الشريف فقال : اللهمّ هذا حبيبك ، وأنا عبدك ، والشيطان عدوّك ، فإن غفرتَ لى سُر

حبيبُك ، وفاز عبدك ، وغضب عدوك ، وإن لم تغفر لى غضب حبيبك ، ورضى عدوك ، وهلك عبدُك ، وأنت أكرم من أن تُغْضب حبيبَك ، وتُرضِى عدوَّك ، وتهلك عبدك ، اللهم إن العرب الكرامَ إذا مات فيهم سيّد أعتقوا على قبره ، وإن هذا سيد العالمين فاعتقنى على قبره .

قال الأصمعى فقلت : يا أخا العرب إن اللهَ قد غفر لك وأعتقك بحسن السؤال .

المحبة ليست شركاً :

وليت شعرى كيف يشكك الجاهلون فى محبته صلى الله عليه وسلم ويرمون المحب بالشرك ، أين المحبة من العبادة ؟ إننا نَشْهَد فى كل تَشَهُّد أنه عبد الله ورسوله ، فمن أين تأتى الشركة ؟ ومن أين يأتى اللبس ؟ وكيف لا أحبه بحب الله له ؟ وكيف لا أكرّمه بتكريم الله له ؟ وكيف لا أعظمه بتعظيمه له ؟ وقد جعل سبحانه اتّباعه صلى الله عليه وسلم الدليل على محبة الله تعالى فى قوله سبحانه :

(قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ، وهل اتباعه صلى الله عليه وسلم كان وقْفاً على حياته ، أو هو قائم إلى يوم القيامة ؟ وهل أمرنا الله تعالى بالصلاة والتسليم عليه فى حياته أو إلى يوم القيامة ؟ وهل كان الخليفة الأول أبو بكر الصدّيق علم الأمة الأشهر جاهلا بالتوحيد حين حرص على أن يُدفن فى قبره صلى الله عليه وسلم وإلى جواره الحسى صلى الله عليه وسلم ؟ وهل جهل أمير المؤمنين عمر التوحيد حين استأذن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن يدفن إلى جانب صاحبه ؟ هل نرميهما بالشرك لأنهما أرادا أقرب جوار فى القبر الشريف وفضّلاه عن مقبرة المسلمين العامة ، وهل كان ابن عمر جاهلا حين كان يدخل المسجد النبوى ويسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان عمر بن عبد العزيز جاهلا حين كان يرسل عامل البريد للمدينة للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان الإمام مالك جاهلا حين كان يقول : كيف أطأ بحافر دابة أرضاً تضم جَدَث النبى صلى الله

عليه وسلم ؟ أو حين استفتاه الخليفة المنصور فى الدعاء فيما إذا كان يواجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يستدبره ويتجه للقبلة ويدعو ؟ فأفتاه قائلا : وَلِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى، بل استقبله واستشفعه ، فيُشَفِّعه الله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيمًا) .

ولم أرد بهذه الكلمة أن أقنع المعترضين، لأنهم لا يقتنعون، ويتمسكون برأيهم فى تعصب شديد ، ولكنى أردت أن أطمئن المؤمنين الذين يتبركون بأسلافهم الصالحين ويتوسلون بهم إلى الله الذى أكرمهم فى جواره وهم السابقون بالخيرات بإذن الله ، وكفاهم شرفاً أن يقول تعالى فى أحبابه : (لهم مايشاءون عند ربهم) وهو سبحانه القائل : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياءُ بعض) وقد سَنَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستعين بالصالحين حين استأذنه سيدنا عمر فى الخروج إلى مكة للعمرة فقال له : « لا تنسنى يا أخى من دعائك » فإذا كان الفاضل يجوز له أن يستعين بدعاء المفضول ، فكيف لا يستعين المفضول ببركات الفاضل ؟

وإذا كان لكل مؤمن شفاعة عند الله يومَ القيامة فلماذا لا تكون للمقربين شفاعة فى البرزخ ، وهو سبيل إلى الآخرة ، والله تعالى يقول فى شأنهم : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . ولا شك أنه مما تَقَرُّ به أعينُهم أن تجرى رحمةُ الله للمؤمنين على أيديهم ، وأن يُكْرِم الله زوَّارهم فى حاجاتهم ، وقد زاروهم زيارة خالصة لله وفى محبته تعالى ودعوا لهم بالمغفرة ، ويسرهم أن تكون لهم من الله الجائزة ، وهو سبحانه وتعالى صاحب الفضل على عباده أجمعين (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) .

بيان للناس :

أقول : وفرق بين حب الصالحين وعبادة الأوثان ، ولا محل إذن للتشكيك فى عقيدة المحبين بدعوى أن عُبَّاد الأصنام تقربوا بعبادتها وقالوا : إنما نعبدهم

ليقربونا إلى الله زلفى ، والمحبون لايقولون : نعبدهم ، إنما يقولون نحبهم لأن الله أحبهم وأحبوه (يحبهم ويحبونه) ، فهى مغالطة مكشوفة تحت شعار الغيرة على العقيدة ، والعقيدة تلزمنا محبة الصالحين ممن أنعم الله عليهم برضاه سبحانه ، وشجعنا على تقليدهم ، والسير على منوالهم فى طاعة الله ورسوله لنحشر معهم ، وننعم برضوانه فقال تعالى :

(وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِين وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) ، وعلّمنا سبحانه أن نسأله هدايتنا لصراطهم فى كل فاتحة (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .وما أروع ما يقول فى شأنهم سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى فى الباب التاسع والعشرين من كتاب « الفتوحات المكية » :

« قال تعالى لإبليس : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) ، فأضافهم إليه وهم الذين لا سلطان لمخلوق عليهم فى الآخرة ، وما تجد فى القرآن عباداً مضافين إليه سبحانه إلا السعداء خاصة ، وجاء اللفظ فى غيرهم بالعباد .

التبرك بالآثار النبوية :

إن القرآن الكريم شرّف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعبودية ، وكل مؤمن مصدّق بالقرآن الكريم ، فكيف نتهم المحبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالشرك ؛ وقد سأل أبو هريرة رضى الله عنه الحسن السبط رضى عنه أن يكشف له المكان الذى قبّله رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سُرّته ، فقبلها تبركاً بآثاره وذريته صلى الله عليه وسلم ؛ وقد كان ثابت البنانى رضى الله عنه لا يدع يد أنس بن مالك رضى الله عنه حتى يقبلها ويقول : يدٌ مست يدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورحم الله من قال :

يا من يذكرنى حديث أحبّة ... طاب الزمانُ بذكرهم ويطيب
أعِدِ الحديثَ علىَّ من جنباته ... إن الحديث عن الحبيب حبيب

ابن تيمية يتعجب :

وجاء فى كتاب « جواهر البحار » : قال المحب الطبرى : يمكن أن يُستنبط

من تقبيل الحجر واستلام الأركان تقبيل ما فى تقبيله تعظيم الله تعالى ، فإنه إن لم يَرِد فيه خبر بالثواب ، فلم يرد فيه خبر بالكراهة ، وقال الحافظ زين الدين العراقى [1] : أخبرنى الحافظ أبو سعيد بن العلاء قال : رأيت فى كلام أحمد ابن حنبل فى جزء قديم ، عليه خط ابن ناصر وغيره من الحفاظ ، أن الإمام أحمد سئل عن تقبيل قبر النبى صلى الله عليه وسلم وتقبيل منبره فقال : لا بأس بذلك ، فأريناه الشيخ تقى الدين ابن تيمية ، فصار يتعجّب من ذلك ويقول : عجيب ، أحمد عندى جليل يقول هذا ؟ قال : وأى عجب فى ذلك ، وقد روينا عن الإمام أحمد أنه غسل قميصًا للشافعى وشرب الماء الذى غسله به ، وإذا كان هذا تعظيمه لأهل العلم فكيف بمقادير الصحابة ؟ فكيف بآثار النبى صلى الله عليه وسلم ؟ ولقد أحسن مجنون ليلى حيث يقول :

أمُرُّ عـــلى الـــديار ديار ليلى ... أقبلُ ذا الجدار وذا الجدارَ
وما حبُّ الديار شغفن قـــلبى ... ولكن حبُّ مَنْ سكن الديارَ

وجاء فى كتاب « جواهر البحار . . . » وفى كتاب « العلل والسؤالات » لعبد الله ابن أحمد بن حنبل ، سألت أبى عن الرجل يمس قبر النبى صلى الله عليه وسلم يتبرك بمسّه وتقبيله ويفعل بالقبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى فقال: لا بأس به .

أقول ، ولله در القائل فى المحبة وأثرها :

ولو قيل للمجنون أرضٌ أصابها ... غبارُ ثرى ليـــلى لجدَّ وأسرعا

وإن كان قد ورد فى « التحفة » لابن عساكر أن ابن عمر رضى الله عنه كان يكره أن يكثّر مَسُّ القبر النبوى الشريف ، كما ورد عن أنس رضى الله عنه أنه رأى رجلا وضع يده على قبر النبى صلى الله عليه وسلم فنهاه وقال : ما كنا نعرف هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأقول بعد ذلك ما جاء فى الحديث الشريف (إنما الأعمال بالنيّات وإنّما لكل امرئ ما نوى) ، وحسن الظن بالمؤمنين فى نياتهم أولى من سوء الظن بهم إلى حد التكفير ، وفى ذلك التكفير مغالاة لا محل لها مع استقرار الإيمان فى القلوب

---

(١) جواهر البحار – الجزء الثالث ص ١٧٧

بنعمة الله وفضله ، وإذا كان المعترض لا يؤمن بالتبرك بالبركات التى أفاضها الله على عباده الصالحين ، فهو وشأنه، ولكن لايجوز له أن يُكفِّرَ بغير حق غيره من المؤمنين الذين يتبركون فى حسن اعتقاد بالله ، وهم مؤمنون بالله ورسوله ، ويصلّون للقبلة ، وبواطنهم فى علم الله وليعْلَمَ ذلك المعترض أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقتسمون شَعْرَه الشريف إذا قصه ، وكانوا يقترعون على الشَّعرة الواحدة إذا كان طُلاَّبها أكثر من واحد، وتبرك أحدهم بشرب دمه الشريف حين احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يوارى الدم فى الأرض خلف الجدار، فأحسّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه شربه فسأله: أين واريت الدم ؟ فقال خلف الجدار يا رسول الله فكرر عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله نفستُ على دمك أن أهريقه فى الأرض فابتلعته فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحرزت بطنك من النار » .

أبو أيوب يتبرك :

وقال أبو أيوب الأنصارى : وكنا نصنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم العشاء ، ثم نبعث به إليه ، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده ، فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بَصَلا أو ثُومًا ، فردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم أر ليده فيه أثراً ، قال فجئته فزعًا : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت إذا رددته علينا ، تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة ، قال : إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أُناجَى ، فأمَّا أنتم فكلوه ، قال : فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد .

أرأيت أيها القارئ الكريم كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبركون بآثار يده فى الطعام ويتتبعونها ، ولم يروا فى ذلك شركًا كما يرى بعض الجفاة الذين يعترضون على المتبركين بالأولياء والصالحين من ذرية سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ويقولون فى الاستهزاء إنهم قبوريون، أى يتعلقون بالقبور ، وما دروا أنها تزهو على سائر القبور بتقوى نزلائها ، تلك التقوى التى جعلتهم

أكرم الناس على الله كما قال تعالى : (إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ) .

ابن عمر يتبرك :

وكان ابن عمر رضى الله عنه — وهو الفقيه الحجة — إذا أسرعت به ناقته وهو ذاهب لمكة يشد زمامها ويقول لها : لعل خُفًّا يقع على خف ، أى ضيّقى خطاك لعلى أسعد وتسعدين بأن يقع خفك على خف ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى سارت من قبل فى هذا الدرب .

رؤيا رسول الله فى المنام :

روى ابن الأثير فى أسد الغابة فى ترجمة سيدنا بلال بن رباح رضى الله عنه أن بلالا — وكان بالشام — رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وهو يقول : « ما هذه الجفوة يا بلال ما آن لك أن تزورَنا ؟ فانتبه حزينًا فركب إلى المدينة فأتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وجعل يبكى عنده ويتمرغ عليه ، فأقبل الحسن والحسين عليهما السلام فجعل يقبلهما ويضمهما ، فقالا له نشتهى أن تُؤذّن فى السحر . فعلا سطح المسجد . فلما قال : الله أكبر الله أكبر ، ارتجّت المدينة ، فلما قال : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، زادت رجّتها ، فلما قال أشهد أن محمداً رسول الله ، خرج النساء من خدورهن ، فما رؤى أكثر باكيًا وباكية من ذلك اليوم . أقول : لأنهم تذكروا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يُؤذن فيه بلال بِلَيْل ، ولم يكن يؤذن بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .

رؤيا لسيدى العارف الحلوانى :

ولا يفوتنى أن أمتع القارئ الكريم بما قاله سيدى العارف العالم الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (والد شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما) ، وكان قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم له فى المنام :

بُشرايَ إنَّ حُلاكَ تَبْسِمُ بالمُنى ... إنَّ الكريم إذا رأى الضيف ابتسم
وبوجهك الميمون يَسعدُ من رأى ... أنـوارَه ممن بِمِلَّتك اعتـصم

أرنيه فهو سعادتى ومجادتى أبداً ولو نوماً وعَنِّىَ لا تنم
يا رحمة الله الأمانَ فكنْ لنا سُوراً على الإيمان يا أفق الهمم

ويقول سيدى الشيخ عبد العزيز الحلوانى (شقيق شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما) فى كتابه « الفيض الرحمانى فى تاريخ الإمام الحلوانى » ما نصه :

رأيت فى مذكرات والدى ما نصه :

« . . . ثم إن رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم حق ، ففى البخارى عن أبى هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ولايتمثل الشيطان بى » ولا يشترط فى حقيقة رؤيته صلى الله عليه وسلم أن يُرى على صورته التى كان عليها ، ولكن إذا رؤى عليها كانت الرؤية على ظاهرها لا تحتاج إلى تعبير .

وأضاف الشيخ عبد العزيز قائلا . . . وفى كتاب والدى « الضوء الشارق » : وكان سيدى أبو المواهب الشاذلى رضى الله عنه يقول : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لى : « يا محمد[1] ما أنا بميّت وإنما موْتى عبارة عن تسترى عمن لا يفقه عن الله تعالى ، وأما من يفقه فهو يرانى وأراه » . وقال المرحوم والدى مضمنا للحديث الشريف الوارد فى الجامع الصغير للإمام السيوطى :

إنَّ أزكى الأنام فى القبر حيّ مترفُ الجسم رطبُه كالورد
ولهذا قال عند انتقال افرشوا لى قطيفتى فى لحدى

« وهذا الفرش خصوصية له صلى الله عليه وسلم ، وفى الحديث الشريف « إن الله عز وجل حرَّم على الأرض أن تأكل أجسادَ الأنبياء » .

أقول : وكان سيدى الشيخ أحمد الحلوانى طيب الله ثراه يرى النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا ، وأكتفى هنا بإثبات بعض تلك الرؤى كما جاءت فى الكتاب المذكور[2] :

---

(١) كان رضى الله عنه يسمى محمداً وكنيته أبو المواهب .
(٢) الفيض الرحمانى .

قال رحمه الله تعالى : فى ليلة الخميس ٢٥ من ربيع أول ١٣٠٣ هـ رأيتُ فيما يرى النائم أنى بطيبة (المدينة) كرّمها الله تعالى ، وأن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حىّ وكذا الزهراء والسبطان رضى الله عنهما وهما شابان يافعان أمردان وعندها خلق كثير من رجال ونساء مُحْدِقات[1] بها ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسقى الخلق شرابًا حلواً فى كوب كبير ، فأقبلت عليه فأقبلَ صلوات الله وسلامه علىّ وأعطانى كوبًا وأمرنى بشربه ، فشربته كله حتى اكتفيت ، ووجدت بَرْدَه ولذّته فى جميع أعضائى ، ثم ناولنى كوبًا آخر فأخذتُه وقلت إنى اكتفيت فقال : اشرب فشربته كله ، وكل ذلك وهو صلى الله عليه وسلم واقف على مكان عالٍ فى مقصورة تُنْسب إليه[2] لا أقدر على وصف حُسنها وبديع صنعتها ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم تنزل إلىّ فجلس فى ليوان كبير طويل مرتفع قدر قامة رجل تقريبًا وأخذ يعتب على الزهراء رضى الله عنها فى إسرافها العطايا والنفقة التى بذلتها فى الفرح ، فأخذت أنا أخفض من سَوْرَته[3] وأذكره أنها الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ذلك كله فى جانب ما أعطاه الله نَزْرٌ يسير ، وأعطانى صلى الله عليه وسلم قدمه المبارك الشريف ، فصرت ألثمه عاريًا ظاهراً وباطنًا وأضعه على وجهى وعينى وجبهتى وأكرر ذلك ، ثم قلت يا رسول الله : تُحْفَتى على فرح السبطين قال : وما تريد ، قلت أن تلتفت إلىّ ولا تنسانى ، فأنعم لى بذلك مبتسمًا ، ولا أنسى بياضَ وجهه الشريف وسوادَ لحيته الشريفة وحسنَ عينيه ثم استيقظت .

وقال رحمه الله تعالى : رأيت فى النصف الثانى من رمضان سنة ١٣٠٤ هـ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل عليه السلام يقول : جئتك ببشارة من رب العزة وهى : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ، ثم جاء بكتاب قديم بخط القلم فيه هذا المعنى مرويًا فى جملة أخبار مرفوعة إلى

---

(١) مجتمعات عليها .

(٢) مخصصة له صلى الله عليه وسلم .

(٣) غضبه .

النبي صلى الله عليه وسلم رقيقة الألفاظ مبشرة جداً واستيقظت فرحاً مسروراً والحمد لله .

وقد قصدت بإثبات هذه المرائى أن أبيّن للقارئ الكريم أن صلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الروحيّة متصلة على الدوام بأبنائه المؤمنين ، وأنه لولا تلك الصلة لتزعزع إيماننا بطول القرون بيننا وبينه ، وكثرة الفتن ما ظهر منها وما بطن ، ولا يذوق هذه الصلة الروحيّة إلاّ أهل التقوى من المؤمنين ، وقد ورد فى الحديث الشريف : « حياتى خيرٌ لكم ومماتى خيرٌ لكم »، فسئل كيف يكون مماتك خيراً لنا يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « تُعرض علىَّ أعمالكم فإن وجدت خيراً حمدتُ الله وإن وجدت غير ذلك استغفرت لكم » . وهذا مايدلُّنا على أنه فى قبره الشريف عامل بقول الله تعالى فى سورة محمد :

(فَاعْلَمْ أنه لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) . وقد جاء فى تفسير «ذنبك» . أى ذنب أهل بيتك خاصة ، والمؤمنين والمؤمنات عامة ، لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم من الذنوب بعصمة الله له ، وقد سلف القول فى العصمة بالتفصيل فارجع إليه إن شئت فى الباب الثامن .

* * *

وختاماً أقول :

سيدى يا رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليك وعلى آلك الكرام البررة وبعد، فلقد قلتُ على لسانى ما قلت، ونقلت عن غيرى ما نقلت، وأنت كما أنت على مر الزمان لا يستطيع أحد أن يوفيك حقك .

فإن قبلت الكتاب تكرماً فقد سعدتُ ، وإن رأيتنى قصرت فعذرى لديك واضح :

أوْصَافُكَ الغُرُّ فاقَتْ عما أحيطُ وأعْلَمْ
محاسنٌ ليس تُحْصَى وحَدُّها ليس يُعْلَمْ

وفى قبولك رأفة بالكاتب ، وفى عفوك عن القصور متسع ، وحسبك ما يتكلم به الله تعالى فى شأنك واصفاً ومادحاً فى القرآن الكريم .

أما أنت أيها القارئ الكريم فكل ما أرجوه منك دعوة صالحة تكون رابطة ودية فى الله بينى وبينك لا تنفصم عراها إن شاء الله وأن نعمل معاً سوياً بقوله تعالى :

(إن الله وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيماً) .

صلوات الله وسلامه على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

مراجع الكتاب

القرآن الكريم .

كتب السنة النبوية .

تفسير الإمام القرطبى .

تفسير الإمام الفخر الرازى .

تفسير الإمام الألوسى .

تاريخ الإمام الطبرى .

السيرة النبوية لابن هشام .

السيرة النبوية لابن كثير .

جواهر البحار للشيخ النبهانى .

الفتوحات المكية للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى .

الرسائل للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى .

مثنوى جلال الدين الرومى — ترجمة وشرح الدكتور عبد السلام كفافى .

أعلام الموقعين لابن القيم .

عبقرية محمد للعلامة العقاد .

ما يقال عن الإسلام للعلامة العقاد .

حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعلامة العقاد .

الفلسفة القرآنية للعلامة العقاد .

الفيض الرحمانى للشيخ عبد العزيز الحلوانى .

على بن أبى طالب للأستاذ عبد الكريم الخطيب .

العقيدة الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة .

الرسائل للشيخ يوسف الدجوى .

خامس الخلفاء الراشدين الإمام الحسن بن على للمؤلف .

الصوفية فى إلهامهم للمؤلف .